منفرجة الاسافل ثم شاهد ثياب اهل البلاد المعتدلة متوسطة بين السعة والضيق وثبت ان اهل البلاد الباردة لا يلبسون الا الثياب الضيقة التي لا ينفذها الهواء . فقال في نفسه : ان الثوب راى ان لابسه في البلاد الحارة يحتاج الى الهواء ، فاتسع ، ثم رأى ان صاحبه لا يحتاج الى ذلك بالقدر المذكور في البلاد المعتدلة فضاق قليلاً ، ثم رأى ان البرد يفرس الرجل اذا كان عليه ثياب فضفاضة فضاق وتجمع حتى لا يصيب صاحبه البرد . وعلى هذا تبين ذكاء الثوب اذ طابق حالته دائما لحالة البيئة التي وجد فيها .

قلنا: ومن لا يرى سقم هذا الاستدلال ؟ أفلو عكس المستدل هذا التعبير اما كان اقرب الى الصواب . أفليس صاحب الثوب هو الذي رأى مناسبة قطعه على تلك الصور الثلاث المختلفة تطبيقاً لها على مقتضيات اختلاف حالة الجو ؟ فليتأمل العاقل وليتصف في قوله .

وصف مدافن البحرين وصفاً مفصلاً

Description de la Nécropole de Bahreïn.

كل مدفن يشتمل على غرفتين كبيرتين الواحدة فوق الاخرى مبنيتين من قطع صخر ضخمة ولا يبعد انها قد قطعت من جبل الدخان الواقع في صحراء بعيدة ويوجد فيها ايضاً على جوانبها غرف وممار مسبحة بطين على غاية الاتقان ولا يوجد عقود اودعائم ويظهر ان الغرف قد بنيت قبل ان بنى سائر مايحيط بها من البناء . وهذا البناء محكم مجصص وله طبقات مرصوفة من التراب وصغار الحجارة وكأن هذه المدافن قد اقيمت لمقاومة الدهر وصد اقاته فمحيط اساس اكبر التلال نحو خمسين ذراعاً وقد عثر القائد دورند على هيكل بشري في الغرف السفلى طوله نحو تسع اقدام صغير الجمجمة منخفض الجبين واسع حرف حجاج العين (المحجر) وعندما عرضت الجمجمة للنور والهواء تكسرت كسراً عديدة . ان رؤية بعض عظام الهياكل تدل على ان اصحابها دفنوا وهم جلوس ويظهر لنا انهم كانوا من وجوه الامة وسراة القوم وكان دفنهم يجري على خلاف ما كانت تدفن العامة على حد ماهو جارٍ اليوم عندنا في دفن البطارکة والمطارنة والملافنة والاساقفة وسائر الرؤساء الروحانيين بيد ان ذلك يحتاج الى بحث دقيق وفحص كثير وقد اكتشف حديثاً في المنعطفات

قطع من عظام بني آدم . اما في الغرف العليا (الفوقانية) فقد وجد عظام كبيرة عدت من عظام حصان وايضاً قطع من معدن يشبه الصفر (النحاس الاصفر) والنحاس الاحمر وشقف وخزف خشنة غير مصقولة وقشور بيض النعام وبضع آنية مصنوعة من العاج وتماثيل وغير ذلك من الادوات المختلفة الاشكال . وفي اراضي غرف بعض المدافن شيء كثير من عظام اليربوع (واليربوع ضرب من الحيوانات يشبه الجرذ ويكثر في صحاري الخليج) وفي تلك القبور مقادير وافرة من العظام الصفراء فدفنت هناك منذ قرون عديدة وقد عفت اغلب تلك الغرف تنقيباً دقيقاً طمعاً في العثور على آثار ذات شان جليل ولكن جل ماوجد فيها بقايا سجف وستائر قد تحولت الى كوم من تراب لطول عهدها وهناك ايضاً قطع اخشاب قد نخرها السوس والديدان.

اما البناء فهائل جداً وجرمه عظيم لكن لم يعثر فيه على الادوات التي كانت تتخذ في الحفر والبناء بل ولم يعثر على رسوم او نقوش او كتابة بيد ان هناك شقوقاً واخاديد ونوعاً من الخنادق القليلة الغور قد حفرت حول اساس كل مدفن .

ان اول من فتح تلك المدافن وباشر بالحفر والتنقيب فيها هو المنكب (اليوز باشي) الباسل دورند وذلك في سنة ١٨٧٩ ولا تسأل عن الصعوبات والمشقات التي لاقاها في سبيل الوقوف على آثار تلك الديار وقد نال اخيراً بغيته التي كان يتوخاها اذ حصل على معارف واقادات جمة وذلك بينما هو مجد في عمله وساعد على الخطة التي اختطها باغته سفينة حربية انكليزية فساعده ربانها بالهمام كل المساعدة ولم يمده فقط بفريق من نوتيته ليساعدوه في التنقيب والتنقير بل عرض عليه اراء جليلة تذلل العقبات والمشاكل وتمهد له السبيل للحصول على ما كان يدور في خلده وقد اشار عليه ان يتخذ وسائل النسف داخل احدى الغرف المفتوحة ليزيل عنها سطحها ويتسنى له الوقوف التام على محتوياتها ولكن النتيجة لم تأت بالمطلوب لان سقف الغرفة المذكورة سقط في باطنها وكان في ذلك نهاية اعمال البطل دورند اذ على اثر ذلك دعاه اولو الربط والحل ليتقلد زمام وظيفة اخرى في محل آخر وفي سنة ١٨٨٩ خلفه الفاضل بنت

ومعه عقيلته واخذ بالحفر والتنقيب وقد فتحا مدفنين متوسطي الحجم ومنذ ثمانى اوتسع سنوات زار جماعة من علماء بلجكة البحرين وتفقدوا القبور وفتحوا احدها ولم يتصل بي نتائج ابحاثهم .

وممن عنى بالحفر ايضاً عامل بريطانيا العظمى في البحرين المنكب (اليوز باشي) بريدكس Prideaux وقد حفر بقرب « قرية على » واشتغل فيها عدة اسابيع وفعل مثل ذلك في «منامة» وكان قد ضرب له في وسط المدافن خيمة يتردد اليها من وقت الى آخر . وجمع طائفة كبيرة من الرقات وبعض قطع من العظام البشرية وغيرها من الاثار وقد بعث بها الى دار التحف في لندن .

كم من امة طرقت ذلك الطريق الوعر والجادة الموعثة ووقف ابناؤها ونخبة من افرادها حاسري الطرف مشتتي الافكار لا يبدون حراكاً لما داهمهم من الاضطراب والقلق بخصوص اسرار تلك المدافن المبهمة فخطوات اقدامهم تردد امام مخيلتنا القرون المتصرمة ودوى آثار ايديهم ترن في آذان الادهار الغابرة واحدثهم عهداً بها الانكليز وقد سبقهم اليها البرتغاليون فالعرب فالفرس فالهنود فالرومان فاليونان فالفنيقيون فالبابليون فالكلدانيون فاصحاب الرؤوس السود الذين هم اول من مد رواق التمدن والعمران البشري على وجه البسيطة وعليه يكون تاريخ بلاد اليونان حديثاً جداً بالنسبة الى تاريخ مسقط راس العالم الانساني ولهذا تحسب مملكة الرومان والصين واليابان والهند من ممالك امس بجانبه هذا وكم من امة وقبيلة وشعب ولسان ودولة زالت وانقرضت وامست في خبر كان واما تلك المدافن فشاخصة قائمة بعزها ومجدها كما كانت منذ اول بنائها اذ انياب الدهر ومخالب طوارئ الزمان لم تقو على ملاشاتها وافنائها من على سطح الكرة الارضية وهي واقفة على اركانها الضخمة تسخر بمرور الايام وكرور الاعوام قسبحان من بيده البقاء والخلود والفناء والوجود. في كل مكان وفي كل زمان !

رزوق عيسى